الموقف التربوى عند القلقشندى

المشكلة وأهمية دراستها :

يزخر تاريخ بعض الأمم والشعوب بعدد من القيادات الفكرية التى تركت بصماتها على حركة التطور الفكرى على المستوى الإقليمى ، وأيضا على المستوى العالمى . وتكاد منزلة الأمة تتحدد بمقدار ما أفرزته من قيادات ساهمت فى حركة التطوير العالمى من حيث المجالات العلمية والثقافية .

صحيح أنه لابد من الإقرار بأن المفكر ليس نبتا شيطانيا خرج وحده ، وبجهده وحده فكّر فيما شغله من مسائل وقضايا ، وإنما هو نبت اجتماعى أفرزته ظروف اجتماعية معينة ،وأثرت عليه اتجاهات ثقافية سائدة ، نقول: صحيح هذا ، ولكنه لا ينفى أبدا مقولة الدور الذى تقوم به مثل هذه القيادة ، وإلا فما الذى لم يجعل أشخاصا آخرين يقومون بنفس الدور وهم يعيشون العهد نفسه والظروف نفسها ؟

وتاريخ مصر يكاد يضعها فى مقدمة الأمم صاحبة السهم الوافر فى إفراز مثل هذه النوعية من القيادات مما جعل لها دورا واضحا وفضلا بارزا على مسيرة الفكر الإنسانى ،وخاصة فى عهودها الإسلامية ، وفى مقدمة هذه العهود عصر سلاطين المماليك .

ففيه أصبحت مصر " مجمع "القيادات و " ميدان " الفكر الذى تلتقى فيه كافة طرق المعرفة من تاريخ وجغرافيا وعلوم دينية وطبيعية ورياضية وأدبية، كان لها أثرها الذى لا شك فيه فى إثراء الثقافة الإسلامية . ولم يكن يميز هذا الفكر بأن صاحبه شامى أو مغربى ، عراقى أو يمنى ،فارسى أم تركى ، وإنما

---

* ساعدت د.زينب حسن فى بعض أجزاء الدراسة.

يكفى أن يكون "عالما " ، ويكفى أن يكون (مسلما) صحيح العقيدة ، سليم الفكر لتفتح له الأبواب كى يسجل ناتج فكره على صفحات الورق .

ومما لا شك فيه أن هذه الآثار الفكرية لا ينبغى أن تتحول إلى مجرد قطع "آثار " نتسلى بالنظر إليها ليملؤنا الشعور بالزهو والفخر ، بل لابد من التوفر عليها لتحليلها ودراستها وطرح الطالح منها وانتقاء الصالح ودمجه فى ثقافتنا المعاصرة ، فنصل بذلك حاضرنا بماضينا لتتحقق لنا وحدة الثقافة فتتحقق لنا وحدة الشخصية وتكاملها ومن ثم لا نقع فريسة التمزق بين ماض غابر وحاضر مشكل ومستقبل فى علم الغيب .

تحديد المشكلة :

يمكن تحديد المشكلة فى السؤال التالى :

بناء على ظروف الثقافة والعصر الذى عاشه القلقشندى ، ماذا كان موقفه من أهم القضايا التربوية السائدة ؟

حدود الدراسة :

سيتركز هذا البحث على تحليل محتوى ذلك العمل الفكرى الضخم الخاص بالقلقشندى المعنون بـ (صبح الأعشى) وذلك فى محاولة لاستقراء اتجاهات العصر التربوية وأهم القضايا التى سادت لبيان وجهة نظر القلقشندى إزاءها، وبذلك فإن هذا البحث سيحاول (رؤية) القلقشندى من خلال هذا العمل وحده دون غيره ، وكذلك بدون استعانة بتحليلات الآخرين وكتاباتهم عن القلقشندى .

منهج الدراسة :

من الواضح أن موضوع البحث ينتمى إلى عصر تاريخى مضى منذ زمن طويل، وبالتالى فهو موضوع " تاريخى " مما يوجب استخدام المنهج التاريخى فى دراسته ، ولكننا يجب أن نلتزم من الصدق ما يجعلنا نقول أننا لن نستخدم هذا المنهج من حيث النقد الداخلى والنقد الخارجى ، ذلك أن (العمل العلمى) موضوع الدراسة منشور ومحقق ومطبوع وثابت أصله ونسبته إلى القلقشندى ، ومن هنا فإننا سنقتصر فى استخدام المنهج التاريخى على استقراء الوقائع والأحداث والربط بينها للخروج بالسمات والاتجاهات والخصائص الرئيسية واستنباط الأفكار والفلسفة الكامنة .

كذلك فإننا لابد من أن نستعين بقدر من (التحليل الفلسفى) بالمعنى المنهجى الذى يجعلنا نقف أمام الفكرة أو اللفظ أو المصطلح لنحاول بيان معانيه أو معناه ومدلوله ومغزاه فى التربية .

مفهوم الموقف التربوى :

قصدنا أن نستخدم هذا المصطلح دون غيره من المصطلحات الشائعة لدى الباحثين لأنه – نتيجة استقرائنا – أقرب إلى تصوير المعانى التى كتب عنها القلقشندى . ذلك أن الجمهرة الكبرى من الباحثين قد درجت على استخدام مصطلحات مثل: " الفكر التربوى " ، " فلسفة التربية " ، " الآراء التربوية " ، " النظرية التربوية " عندما يكون الباحث بصدد دراسة تربوية محورها إحدى الشخصيات الهامة فى مسيرة التربية عبر العصور والأعوام .

وبالنسبة للشخصية التى نتعرض لها بالبحث والدراسة لا نستطيع أن نزعم لها " فكرا أصيلا " يميز صاحبها عن غيره ممن سبقوه أو أتوا بعده

،وإنما هو أمين لعصره وصورة صادقة للثقافة التى يمثلها ،ثقافة الموسوعات ودوائر المعارف والشروح والحواشى والتقارير و " التجميع " ، فهو يأتى بفكرة من هنا وفكرة من هناك ، ويشير إلى رأى هذا وإلى رأى ذاك أحيانا تصريحا وأحيانا تلميحيا .

وإذا كان الأمر كذلك ، فلربما يجئ التساؤل عما يدرينا إذا بأن ما هو مكتوب يمثل رأيه واتجاهه ؟ وجوابنا على ذلك أن عملية " الانتقاء " نفسها يمكن أن تكشف عن (موقف فكرى) وإيداء للرأى ضمنيا .

إننا نتألف عادة أن نسمع ونقرأ عن " الموقف السياسى " أو " الموقف الاقتصادى " لبلد من البلدان أو زعيم من الزعماء أو مسئول من المسئولين ، وعلى نفس القياس نحاول نحن أن نستخدم هذا التعبير لنعنى به محاولة تحليلية لاستقراء " الواقع " الذى عاشه القلقشندى من الناحية النظرية ،ونؤكد على هذه الصفة الأخيرة بالذات لأننا لن نتعرض للأحوال التعليمية التى مر بها الرجل إلا بدرجة ثانوية لا لأنها لا تمثل ركنا من أركان "الموقف التربوى " ، وإنما لأن كثيرا من الباحثين والكتاب قد أوفوها حقها ، ومن ثم فإننا نسلم بأهميتها وحيويتها فى تصوير (الموقف التربوى) ، وأردنا أن نقتصر على الجانب النظرى لأن حظه من الدراسة كان قليلا ، إن لم يكن نادرا .

الأصول الاجتماعية لموقف القلقشندى :

تشكل جملة العوامل والظروف الاجتماعية " الأصول " التى تلعب دورا أساسيا فى تشكيل فكر المفكر أو آراءه سواء فى التربية أم فى غيرها من المجالات ، وكذلك فيما يتخذه من مواقف . والرجوع إلى مثل هذه الأصول إنما هو بمثابة (تفسير) للظواهر موضع الدراسة .

ومن المعروف أن القلقشندى عاش طرفا من عصر المماليك فى مصر ، فتشبعت بظروف هذا العصر آراؤه وأفكاره وحياته العملية .

ومما ساعد على إكساب عصر المماليك أهمية خاصة فى التاريخ ، ومكن لسلاطينه من البقاء والاستمرار ، ومن تنفيذ مشاريعهم الضخمة سواء كانت حربية أم عمرانية ، ازدياد أهمية مصر بصورة لم يسبق لها مثيل فى النشاط التجارى بين الشرق والغرب ، ذلك أن حركة توسع المغول ، ترتب عليها وقف التجارة بين الشرق والغرب ، سواء كانت عن طريق الخليج – بغداد ، أم عن طريق فارس وشمال العراق فالبحر الأسود ، وبذلك لم يبق آمنا من طرق التجارة بين الشرق والغرب سوى طريق البحر الأحمر ومصر ، وسرعان ما أفاد سلاطين مصر من تلك الفرصة ،فاحتكروا تجارة الشرق وجمعوا من وراء ذلك أموالا وثروات ضخمة أضفت عليهم وعلى دولتهم مسحة من الأبهة والبسطة والبذخ [١] .

ولم يقتصر ذلك البذخ على الطبقة الحاكمة من المماليك ، وإنما تنافس الوزراء والكتاب والتجار فى تشييد القصور والتفنن فى زخرفتها والتأنق فى تأثيثها حتى غدت مضرب الأمثال ومحورا لكثير من القصص المعاصر ، وسرعان ما وصلت أخبار تلك الثروة إلى بقية البلدان العربية المجاورة ، فهرع كثير من أهلها إلى مصر لما بلغهم عن " أحوال مصر والقاهرة من الترف والغنى " [٢].

وقد كان المجتمع مؤلفا من طبقتين متميزتين هما : الطبقة الحاكمة والطبقة المحكومة وتتكون الطبقة الحاكمة من السلطان وهو ولى الأمر الشرعى ، ومن أمراء دولته ، وهم يعاونونه فى الحكم ، ويختارون السلطان من بينهم ، إذا خلا منه منصبه ، ومن جنوده السلطانية وهم عماد الجيش وحفظة الأمن ،

وجميع رجال هذه الطبقة – فى جملة الأمر – من الجنس الجركسى ، وقد استبدت بكل أسباب القوة [٣] .

أما الطبقة المحكومة ، فهى عامة الشعب ، وأغلبها من الجنس العربى ، منهم التجار وذوو الرفاهية والنعمة من الملاك ، والسوقة والباعة ، والصناع ، وأهل الفلح (الفلاحة) والفقهاء وطلاب العلم والأجراء وأهل الحرف وذوو الحاجة والمسكنة ويسمونهم الحرافيش [٤].

وقد عنى السلاطين المماليك عناية فائقة بمماليكهم وحرصوا على تربيتهم تربية سليمة ، فإذا اشترى السلطان عددا من المماليك أرسلهم أولاً لفحصهم للتأكد من سلامة أبدانهم ، وبعد ذلك ينزل كلا منهم فى طبقة جنسه بحيث لا يقيم فى طبقة من الطباق المخصصة للمماليك بالقلعة إلا المماليك ذوو الأصل المشترك أو المجلوبين من بلد واحد . ويقوم بتربية المماليك فى الطباق مجموعة من الطواشية الخصيان ، فضلا عن الفقهاء الذين كانوا يترددون على الطباق لتعليم المماليك القرآن والخط وأحكام الدين الإسلامى . ثم إن الأساتذة – من سلاطين وأمراء – لم يضنوا على مماليكهم بالأرزاق والأموال ، وإنما نظروا إليهم نظرة أبوية مشبعة بالعطف والحنان ، فخصصوا لهم أشهى الأطعمة وصرفوا لهم الكسوات الفاخرة .

فإذا شب المملوك وأدرك سن البلوغ ، بدأ تعليمه فنون الحرب والفروسية ، حتى إذا انتهت هذه المرحلة التعليمية ، خرج من الطباق وانتقل فى أدوار الخدمة السلطانية رتبة بعد أخرى حتى يصبح من الأمراء .

بعض قضايا عصر القلقشندى التربوية

لا نريد أن نفرض على القلقشندى قضايا عصرنا وهمومه التربوية ونحاول أن (نستنطقه) فيها ، ذلك أن اهتمامات العصور متباينة مما لابد أن يلقى بظله على اهتمامات ومواقف العالم أو المثقف .

العلاقة بين (كتابة الإنشاء) ومطلق المعرفة والعلم :

يجئ حديث القلقشندى عن العلم فى معرض حديثه عن (الكتابة) التى أفاض فيها بيانا لقيمتها وتعدادا لمناقبها وتوجيها إلى ضرورة تعلمها ، وهو فى كل هذا وغيره لم يكن يقصد مجرد " الكتابة " وإنما هو يستخدمها بمعنى يتسع ليجعل منها أقرب إلى " الثقافة " أو "العلم " ويتبين لنا ذلك من تحليل المقصود من الكتابة .

فإذا كانت " الكتابة " فى اللغة معناها "الجمع " ، فيقال تكتبت القوم إذا اجتمعوا وبحيث سمى الخط كتابة لجمع الحروف بعضها إلى بعض ، إلا أن القلقشندى قد نوه إلى أن من معانيها أيضا " العلم " ، مستدلا على ذلك بقوله تعالى " أم عندهم الغيب فهم يكتبون " ، أى يعلمون ، وهو نفس المعنى الذى قصده الرسول صلى الله عليه وسلم فى رسالته إلى أهل اليمن حين بعث إليهم معاذا وغيره [٥] " أنى بعثت إليكم كاتبا " ، قال ابن الأثير فى غريب الحديث : " أراد عالما ، سمى بذلك لأن الغالب على من كان يعلم الكتابة أن عنده علما ومعرفة ، وكان الكاتب عندهم قليلا وفيهم عزيزا " .

ولعل ما يقرب معنى " الكتابة " من معنى " المعرفة " وخاصة المكتوبة ، استعانة القلقشندى بتعريف أحد العلماء للكتابة من الناحية الاصطلاحية حيث قال : " بأنها صناعة روحانية تظهر بآلة جثمانية " . ومن المرجح أنه يقصد

بالصناعة الروحانية هنا تلك العمليات العقلية التى بواسطتها يكـون الإنـسان أفكارا تدور حول موضوعات يقصد البحث فيها ، دليل ذلك أنه فسر فى موضع آخر معنى الروحانية " بالألفاظ التى يتخيلها الكاتب فى أوهامه ويصور مِنْ ضَمِّ بعضها إلى بعض صورة باطنة قائمة فى نفسه " . أما " الجثمانية " ، فالمقصود بها الخط الذى يخطه القلم وتفيد به تلك الصورة وتصير بعد أن كانت صـورة معقولة باطنة ، صورة محسوسة ظاهرة [٥] (ص٥١) .

وإذا كان القلقشندى يذهب إلى أن أهم أنواع الكتابة هو كتابة الإنـشاء " فينبغى أن نقف وقفة قصيرة لنبين مقصوده منها حتى لا تختلط المعانى بما هو شائع فى الثقافة الشعبية ، فالكثيرون يفهمون مـن كلمـة " الإنـشاء " معنـى ينصرف إلى مقرر " التعبير " فى مدارسنا ، بل بالغ كثيرون فأخذوا يعنون بها عادة كل كلام نظرى لا تطبيق له مزين بالألفاظ ذات الرنين العالى والأساليب البيانية والصور الأدبية ، مع افتقاد المضمون فيعلقون على مـا يقرءونـه أو يسمعونه من هذا بالقول " دى شوية إنشاء " !!

وإذا كان من الممكن أن يكون مقصود القلقشندى من " كتابة الإنشاء " ما نقصده اليوم من أعمال " السكرتارية " ، إلا أن ذلك وإن كان يحمـل بعـض الصحة ، لكننا نظلمه كثيرا لو رادفنا بين الاثنين ، فأعمال السكرتارية " تنفيذية " بحتة ، ، وآلية ، بينما تميزت صناعة الإنشاء ، بالابتكار والإبداع ، فهى إذن أقرب ما تكون إلى " التأليف " ، ذلك أن الإنشاء مصدر (أنشأ) ، وأنشأ الشئ

---

* نظرا لاعتمادنا في بقية الدراسة على كتاب صبح الأعشى ج١ وحده آثرنا الاكتفاء بالإشارة في المتن إلى أرقام الصفحات المحال إليها .

إذا ابتدأه أو اخترعه على غير مثال يحتذ به ، بمعنى أن الكاتب يخترع ما يؤلفه من الكلام ويبتكره من المعانى فيما يكتبه من المكاتبات (ص٥٢) .

ومما يبين علاقة كتابة الإنشاء بالعلم والمعرفة ،تأكيد القلقشندى أن ممارسها لابد أن تكون له دراية طيبة بالكثير من الأعمال والمهن القائمة فى الدولة ، إذ يكتب للقائمين بهذه الأعمال : " فلابد أن يكون عالما بصناعة من يكتب له " ، وهو الأمر الذى نفتقده الآن فكاتب الكومبيوتر يمد يده إلى كتابات اقتصادية واجتماعية ودينية وأدبية وغيرها ، دون أن تكون له أوفى دراية بطرف منه ، فكأنه " قلم حى " إذا صح هذا التعبير ما عليه إلا التنفيذ !

ولا تقف المسألة عند ضرورة إلمام الكاتب ودرايته بأعمال من يكتب إليهم ، بل لابد أن يضيف إلى ذلك عددا من المهارات " الأدبية .. فيضمن كتابته " لطائف المعانى التى هى زبد الأفكار وجواهر الألفاظ التى هى حلية الألسنة . وبذلك تدب الحياة فى الألفاظ الجامدة المسطورة على الصفحات فتنتقل إلى العقول والقلوب محققة ما قصد بها وما أريد بكتابتها " مع مراعاة رشاقة اللفظ وحلاوة المعنى وبلاغته ومناسبته مع ما يحتاجه من اختراع المعانى الأبكار (المبتكرة المناسبة) للأمور الحادثة التى لم يقع مثلها ولا سبق سابق إلى كتابتها لأن الحوادث والوقائع لا تتناهى ولا تقف عند حد " (ص٥٥) .

فضل الكتابة وقيمة العلم :

وكان على القلقشندى ، وليد الثقافة الإسلامية التى أنزلت العلم منزلا رفيعا وأحلت المعرفة محلا ممتازا أن يتابع ذلك النهج ويحتذى بتلك السنة فيبين قيمة العلم ويبرز أهمية الكتابة وفضلها ، ولا غرو فى ذلك الإلحاح المستمر على هذه القضية مما قد لا يستسيغه بعض المعاصرين ، ذلك أن المجتمع المعاصر قد سار شوطا طويلا على طريق العلم والمعرفة وأصبحت أهمية التعلم مسلمة من المسلمات ،لكن إذا رجعنا إلى تلك القرون السابقة، لم نجد

الحال كذلك فالجمهرة الكبرى أميون ، والبنية الاجتماعية والاقتصادية ليست على المستوى الذى يجعل من العلم أساسا لابد منه لسير عجلة الحياة الاجتماعية.

ويستشهد القلقشندى هنا بقول الله عز وجل ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾(سورة العلق: ٣، ٤، ٥) ، فالله سبحانه ينسب تعلم الكتابة إلى نفسه ، ويعتبرها من آيات كرمه ومظاهر إحسانه على الناس . وهنا نلاحظ أن استشهاد القلقشندى بهذه الآيات التى تجئ فيها ألفاظ تتصل بـ(القراءة) و " علم " و " يعلم " يؤكد ما سبق أن رجحناه من أن معنى (الكتابة) هو مطلق العلم والمعرفة .

ومما يزيد الكتابة (العلم) شرفا ورفعة أن يعتبرها الله عز وجل صفة يضيفها إلى جملة صفات الملائكة ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ (سورة الإنفطار ١٠، ١١). والأكثر من ذلك تشريفا للعلم والمعرفة أن يقسم الله بآلة الكتابة وهو (القلم) ونتاج عمله مما يسطر على صفحات الورق فيقول﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ، مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ (سورة القلم: ١، ٢). والقسم لا يقع منه سبحانه إلا بشريف ما أبدع ، وكريم ما اخترع، كالشمس والقمر والنجوم وما إلى ذلك من الآيات الدالة على شرفها ورفعة قدرها (ص٣٦) .

وأمة العرب فى شبه الجزيرة لقلة درايتهم بالكتابة كانوا يعتمدون على (الحفظ) فيجعلون (ذاكرتهم) هى (المكتبة) التى تحفظ فيها الأنساب والأشعار والقصص والروايات وما إلى ذلك من معارف ومعلومات ، ومن هنا تأتى أهمية هذا (الأمر النبوى) الشريف " قيدوا العلم بالكتاب " ، قال ذو الرمة لعيسى بن عمر : " اكتب شعرى ، فالكتاب أعجب إلىّ من الحفظ ، إن

الأعرابى لينسى الكلمة قد سهر فى طلبها ليلة فيضع موضعها كلمة فى وزنها لا تساويها ، والكتاب لا ينسى ولا يبدل كلاما بكلام " .

ولا شك أن " للتدوين " أهميته القصوى فى استمرار الثقافة عبر الأجيال بحيث يستطيع الجيل اللاحق أن يقف على ما وصل إليه الجيل السابق فيبنى عليه ويكمل مسيرته فيتحقق التطور المنشود ، ويحدث التجديد المطلوب ،ولو تخيلنا أن كل ما يصل إليه جيل لا " يكتب "، فإنه سيضيع بوفاة أصحابه ، ويبدأ اللاحقون لا من حيث انتهى السابقون ، بل من حيث بدءوا.

وها هو إنسان اليوم لم يقف عند حد " التدوين " بإثبات الأفكار والمعلومات على صفحات الورق ، بل اخترع وسيلة أخرى هى " التسجيل " الصوتى ثم زاد على ذلك ووصل إلى تسجيل الصورة مما ساعد على دفع عجلة التقدم إلى الإسراع فى دورانها بدرجة لم تكن تخطر على بال ، بمستوى لم يكن يحلم به أحد من قبل !

وقد أفاض كتاب العرب فى مدح الكتابة والحث عليها (ص٣٧) .

- قال معن بن زائدة : " إذا لم تكتب اليد فهى رجل ".

وقال المؤيد : " الكتابة أشرف مناصب الدنيا بعد الخلافة ، إليها ينتهى الفضل وعندها تقف الرغبة " .

ومن كلام أبى جعفر " الفضل بن أحمد " : " الكتابة أس المُلك ، وعماد المملكة .. والكتابة قطب الأدب ، وملاك الحكمة ، ولسان ناطق بالفصل ، وميزان يدل على رجاحة العقل .

والكتابة نور العلم .. وميدان الفضل والعدل . والكتابة حِلية وزينة ولَبوس وجمال وهيبة وروح جارية فى أقسام متفرقة ، والكتابة أفضل درجة

وأرفع منزلة .. وبالكتابة قامت السياسة والرياسة ، ... ولو أن فى الصناعات صناعة تربوية لكانت الكتابة ربا لكل صنعة ...

وقد ذكر علماء التاريخ أن يوسف عليه السلام كان يكتب للعزيز ، وهارون ويوشع ابن نون كانا يكتبان لموسى عليه السلام ، وسليمان بن داود كان يكتب لأبيه ، ويحيى بن زكريا كان يكتب للمسيح عليه السلام (ص٣٩).

وقد انتقل جماعة منها إلى الخلافة ، فأبو بكر كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم صارت الخلافة إليه بعد ذلك . وعمر بن الخطاب كان يكتب للنبى ثم صارت الخلافة إليه ، وعثمان بن عفان ومعاوية بن أبى سفيان كذلك . وعبد الملك بن مروان كان يكتب لمعاوية ثم انتقل الأمر إليه .

ويذكر القلقشندى عددا كبيرا من الكتاب ، كانوا يعيشون معيشة ضنكى حتى إذا أتاح الله لهم فرصة الالتحاق بالعمل لدى السلطة الحاكمة ، تبدلت أحوالهم وتحسنت أوضاعهم فإذا بهم يرفلون فى أذيال الترف والنعيم ، وكمثال على ذلك الوزير المهلبى فقد كان فى أول أمره فى شدة عظيمة من الفقر والضائقة ، وكان قد سافر مرة ولقى فى سفره ضيقا خطيرا لدرجة أنه اشتهى اللحم فلم يقدر عليه ، فقال (ص٤١) :

ألا موت يباع فأشتريه فهذا العيش ما لا خير فيه !

ألا موت لذيذ الطعم يأتى يخلصنى من الموت الكريه !

ألا رحم المهمين نفس حر تصدق بالوفاة على أخيه !

وكان معه رفيق ، فاشترى له لحما وأطعمه ، ثم ترقى بالكتابة حتى تقلد منصب الوزارة لمعز الدولة بن بويه الديلمى ...

ولعل هذا هو ما نقصده نحن فى عصرنا الحالى عندما نذهب إلى أن التعليم بمثابة (مصعد اجتماعى) يتيح الفرصة لأصحابه أن يبدلوا وضعهم الاجتماعى إلى ما هو أفضل ، فيتم لأفراد المجتمع قدر من (الحراك الاجتماعى) وبذلك تتاح الفرصة للمجتمع لتجديد خلاياه وبعث حركة من التجديد فيه فتسقط تلك الفئات التى راح دورها ، وتخلفت وظائفها ويحل محلها فئات أخرى تكون أقدر على البصر باتجاهات العصر ومسار حركة التاريخ . وبالطبع يمكن أن يحدث العكس فى حال افتقاد التعليم !

لكن ربما يسأل سائل : إذا كان أمر العلم والكتابة على هذه الدرجة من الأهمية ، فلماذا لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم عارفا بها وهو القدوة والمثل لكل المسلمين ولكل من رغب فى أن يكون مسلما ؟

يجيب القلقشندى على ذلك إجابة تحمل قدرا كبيرا من الصحة والمنطقية ، إنها حكمة الله فى اختيار الرسول أميا لأن معجزة الإسلام الكبرى هى (القرآن الكريم) بلفظه ومعناه ، ولو كان الرسول متقنا للقراءة والكتابة لأسرع المفكرون إلى اتهامه بأنه هو صاحب القرآن وأنه ليس منزلا من قبل الله عز وجل ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، يقول عز وجل : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ (سورة الفرقان :٥) وأكد أيضا ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (سورة العنكبوت: ٤٨) .

المواصفات التى يجب توافرها فى المتعلمين والعلماء :

وصنف القلقشندى الصفات والآداب التى يجب أن تتوفر فى الكتاب ، وهم صفوة المتعلمين والعلماء دون أن يبين لنا الأساس الذى استند إليه فى التصنيف ، أو حتى يتيح الفرصة لنا للاستنباط والاستنتاج ، فهو مثلا يذهب إلى

أن هناك صفات ، وهناك آداب ، فلقد حاولنا أن نضع أيدينا على ما يضعه من فرق بين الإثنين ، فلم ننجح ، فهل يريد بالصفات ، جوانب تتعلق بمهارات العلم والكتابة ، ويريد بالآداب جوانب أخلاقية ؟ لو افترضنا ذلك فسوف نجد تداخلا شديدا بين القسمين. أم هل يريد بالقسم الأول جوانب أساسية والآخر جوانب ثانوية؟ لا نستطيع الاعتماد على هذا الاحتمال أيضا وإلا وجدنا تداخلا ، ومن هنا فلا نجد أمامنا إلا إبراز هذه الصفات والآداب كما رصدها هو دون أن نفرض لها من عندنا أساسا يقوم عليه تصنيفها:

أما الصفات ، فهى على ضربين ، أولها ، صفات واجبة لازمة لا يجوز التغاضى عنها، وهى عشر صفات (ص٦١) .

١- الإسلام ، ويعنى بذلك أن يتمثل العقيدة الإسلامية فكرا وسلوكا ، ذلك أن من شأن هذا أن يجعل الناس يأمنون لما يكتب ويثقون به ومن ثم فلا ينبغى أن يلى وظيفة الكاتب ، أحد الكافرين حتى لا يطلع على أسرار المسلمين ويدلى بها إلى أهله وعشيرته فى الفكر والعقيدة ، تطبيقا لقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (سورة آل عمران:١١٨) .

ولما فتح العرب مصر ، بعث عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص يأمره أن لا يستعمل فى عمل من أعمال المسلمين كافرا ، فاعتذر عمرو بأن المسلمين لم تكن لهم دراية بمصر وأحوالها ، ومن ثم فقد اضطر إلى استخدام غيرهم إلى أن تتوفر لهم هذه الدراية والخبرة ، لكن عمر بن الخطاب غضب من ذلك قائلا لعمرو :كيف تؤمنهم وقد خونهم الله وكيف تعزهم وقد أذلهم الله ؟ وكيف تقربهم وقد بعدهم الله ؟ ثم تلا الآية السابقة .

والحق أن هذا الشرط إذا كان " أملا " و " هدفا " ، إلا أن الالتزام به فى العصر الحاضر يكاد يكون مستحيلا ،لقد كان جوهريا فى العصور الإسلامية الأولى حيث كانت الحروب شبه مستمرة بين المسلمين وغيرهم مما كان يتحتم معه ألا يطلع غير مسلم على أحوال المسلمين وخاصة فى مراكز السلطة والقيادة ، لكن الأمر غير ذلك الآن ، فدولنا يقوم بأعمالها المسلمون وغير المسلمين ،وإن كان هذا لا ينفى استمرار بعض المواقف والأحوال التى تحتاج إلى مثل ذلك الشرط ، فما زلنا – ويجب أن نستمر فى هذا – نتحرز من استخدام اليهود فى مراكز السلطة والحرب والحكم نظرا لتلك المواجهة القائمة بيننا وبينهم لكننا حتى فى هذه الحالة لا نمنع أن نشرك معنا المسيحى .

بل وماذا نقول فى كثير من العهود الإسلامية السابقة نفسها ؟ لقد تسرب بعض أهل الذمة إلى مراكز السلطة والقيادة واستعانوا بهم ، وكان لهم نفوذ كبير استطاعوا من خلاله أن يؤثروا على مجرى الأحداث أحيانا .

ومن المبررات التى سبقت لاشتراط إسلام الكاتب أنه فى عمله ملتزم باستخدام القرآن الكريم الذى ينبغى لا يمسه " إلا المطهرون " (ص٦٢-٦٣).

٢-الذكورة – ونحن نستطيع أن (نفهم) شرطا مثل هذا أيضا فى العصور الإسلامية حيث لم تكن النساء تشاركن فى الحكم والإدارة ، بيد أننا لا نستطيع أن نقر ذلك فى الوقت الحالى وإن كان من الممكن القول بتخصيص بعض الأعمال لهن بحيث لا يشاركن دائما فى كل الأعمال وفى كل الأحوال ، ومن هنا فالتعليم بالنسبة لهن واجب وفرض لا ينبغى التقاعس عنه بأى حال من الأحوال ، بل إننا لم نعد فى موضع يسمح لنا بالإفاضة فى ذلك لأن هذه القضية قد حسمت منذ سنوات طويلة ولم تعد محل نقاش ونزاع ، إلا مع المعاندين لسنة التطور والتقدم .

كذالك فإننا نقف بدهشة أمام بعض الآثار التى رواها القلقشندى آملين أن تتاح لنا فرصة أخرى فى بحث مستقل قائم بذاته للتحقق من هذه الآثار ، فقد روى عن عمر بن الخطاب قوله: " جنبوهن الكتابة ، ولا تسكنوهن الغرف ، واستعينوا عليهن بلا ، فإن نعم تضربهن فى المسألة " . ومر على بن أبى طالب على رجل يعلم امرأة الخط ، فقال : " لا تزد الشر شرا ..!! (ص٦٤).

ورأى بعض الحكماء امرأة تتعلم الكتابة فقال : " أفعى تُسقى سما" .

بل لقد وقف أحد شعراء العرب ليقول :

ما للنساء وللكتابة والعمالة والخطابة !

هذا لنا ولهن منا أن يبتن على جنابة ؟!!

ووجه دهشتنا أنه من الثابت أن بعض النساء المسلمات جئن إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يطلبن أن يخصص لهن وقتا يعلمهن فيه بحيث لا يتعلمن فى الصفوف الخلفية مع الرجال حتى يستفدن أكثر.

وإذا قيل أن هذا لا يعنى تعلم الكتابة ، فإنه من الثابت أيضا أن عائشة بنت أبى بكر ،وزوجة الرسول الكريم كانت تكتب ، وكذلك حفصه بنت عمر ابن الخطاب نفسه ... وهكذا .

٣- الحرية . وإذا كان القلقشندى يقصد بها ما يقابل العبودية ، حيث كان الرق معروفا فى وقت بحيث نصح ألا يولى عبد منصب الكتابة ، إلا أننا نمسك بتلابيب هذه الصفة ونتمسك بها بمعنى آخر نجعلها تنصرف إلى إتاحة الفرصة للمتعلمين والعلماء والكتاب أن يستمتعوا بحرية الفكر والكتابة لما هو معروف من أنها شرط أساسى لازدهار الثقافة وثرائها .

٤- التكليف . بمعنى ضرورة أن يبلغ الكاتب سنا معينة نثق عندها فيه ، وقد تكون هذه السن هى سن البلوغ ، وقد تكون سن الرشد. ومن المعروف أن كثيرا من المجتمعات المعاصرة ، ومنها مصر ، تحدد سن الثامنة عشر لتقلد الوظائف .

٥- العدالة . وتلك صفة هامة وخطيرة أوقعنا التخلى عنها فى مآزق كثيرة وخلل واضح ، ومن هنا كان قول القلقشندى بعدم جواز أن يكون الكاتب فاسقا لخطر المركز الذى يشغله ، إذ يستطيع عن طريقه أن يضر بمصالح الناس وأموالهم لو كان فاسد الأخلاق .

٦- البلاغة . وإذا كان القلقشندى يشير هنا إلى " حسن الألفاظ " و " المعانى الجزلة " وما إلى ذلك ، فإننا بأشد الحاجة فى الوقت الحالى إلى " الحد الأدنى " من التمكن فى اللغة العربية، لا لأن ذلك هو الهدف الذى يجب أن نتجه إليه ،كلا ، وإنما درءا لهذا الانحدار الواضح فى مستويات الكتاب والمتعلمين فى أبسط قواعد اللغة حتى لنكاد ننفرد دون شعوب العالم فى ذلك ، فلم يحدث أن كتب عالم انجليزى أو مفكر فرنسى ، أو أديب روسى وأخطأ فى لغته القومية ، لكننا فى مصر والبلاد العربية أصبحنا نتجاوز فى ذلك فسمحنا لأصحاب العلوم الطبيعية والبيولوجية والرياضية ومن ماثلهم بالخطأ استنادا إلى أنهم غير متخصصين فى اللغة ، حتى امتد التسيب والتساهل فشمل هذه الأيام مع الأسف قطاعات غير صغيرة من معلمى اللغة العربية أنفسهم !

٧- التعقل . يقول القلقشندى : " فإن العقل أس الفضائل وأصل المناقب ، ومن لا عقل له لا انتفاع به ، وكلام المرء ورأيه على قدر عقله (ص٦٦)، ومعنى ذلك أن الكاتب إذا توافر له عقل راجح ورأى صائب ، فإنه يضع الأمور فى موضعها الصحيح ، وتمكن من أن يخاطب كل بما يقتضيه الحال التى يكون عليها ، فيشتد إذا ما كانت الشدة نافعة ،ويستخدم اللين عند ما تكون

هناك حاجة إليه ، ولا يتورع عن توبيخ ونقد من يرى أنه يستحق ذلك . هي إذن – إذا شئنا الدقة فى التعبير – الجرأة فى الحق ، فلا نجاح ولا توفيق فى مناصب ومراكز الرأى والكتابة ، إذا غابت عن الساحة ، ولو فتشنا فى كثير من مشكلات عالمنا العربى والإسلامى فسنجد أن غيابها ، مسئول كبير عن ذلك !

٨- العلم بمواد الأحكام الشرعية والفنون الأدبية وغيرها ، ذلك أن الجاهل يفتقد القدرة على التمييز بين الحق والباطل ، الخطأ والصواب " ومن سلك طريقا بغير دليل ضل " .

٩- قوة العزم وعلو الهمة وشرف النفس فمهنة الكتابة ومعظم المهن العلمية تتطلب روحا إيجابية واعتزازا بالنفس وثقة بالذات فى غير غرور .

١٠- الكفاية العملية المناسبة وتلك لا تتحقق إلا إذا وضع " الرجل المناسب فى المكان المناسب " بناء على ما يتمتع به من " أهلية عملية " لا بواسطة أو نفوذ مثلما يحدث فى بلادنا الإسلامية الآن مع الأسف الشديد !!

أما الضرب الثانى من الصفات ، وهى ما يسميه القلقشندى بـ(الصفات العرفية) فهى غير مرتبة ومتعددة ، يتداخل بعضها فى الصفات السابقة ، ومن تلك الصفات العرفية أن يكون الكاتب (٦٨) :

حاد الذهن – حاضر الحس – حلو اللسان – جيد الحدس – كريم الأخلاق – عظيم النزاهة – فيه تؤدة يوقف بها نفسه إزاء ما لا يتأكد منه من المسائل والقضايا – حس البيان – مليح الاستعارة – لطيف المسلك – بهى الملبس .. إلى غير ذلك من صفات لو أننا تأملناها لأدركنا على الفور أن القلقشندى يتحدث عن " مثال " ندر أن يتحقق تماما فى عالمنا الأرض المتخم بالمشكلات والعوائق والتحديات ، والمثال دائما جاذب للحركة والنشاط .. نسعى

نحوه .. ونلهث وراءه ، فتدور عجلة الحياة ، ونحرز التقدم ويحدث التطـور ، ولو قعد أحدنا بحجة أن تلك " مثاليات " يستحيل أن تتحقق لقلنا له .. ما هكـذا تكون الرؤية للمثال والواقع ، فلو سهل طريق المثال لم يعد مثـالا ، ولفتـرت حركة الإنسان فى هذا الكون !

ومن الملفت للنظر أن القلقشندى إذ يمر على الجمهـرة الكبـرى مـن الصفات السابقة مرورا سريعا واضحا ، يقف بعض الشئ أمـام إحـدى هـذه الصفات وهى " حسن الهيئة " فيفيض فيها قليلا ويدهشنا كثيرا قوله أنه إذا كان قد اشترط أن يكون الكاتب " بهى الملبس " ، إلا أن " فصاحة اللـسان ، وقـوة البيان والتقدم فى صناعة الكتابة هو الذى يرفع الرجل ويعظمـه دون أثوابـه البهية ، وهيئته الزاهية " .

أما (الآداب) فهى فى نظر القلقشندى على نوعين :

الأول : حسن السيرة وشرف المذهب ، ولذلك شروط ولـوازم ، منهـا تقوى الله فى السر والعلانية ، ومنها مجانبة الريبة والتنزة عنها ،والذى يدرس الرعيل الأول من الكتاب والعلماء والمثقفـين المـسلمين يـستطيع أن يلمـس بوضوح أنهم كانوا من " جلة العلماء ، وسادة الفقهاء ، وأفاضل أهـل الـورع ،المبدأين من الدنس والطمع ".

ومنها لزوم العفاف وحسن صيانة ما يكون فـى ذمـتهم مـن أعمـال ومسئوليات .

ومنها الاقتصاد فى طلب اللذة والمتعة ، ذلك أن الانشغال بالشهوات غير مستحسن لا لكبير ولا لصغير ، فإنها تصرف الإنسان عن العمل . ولا يعنـى هذا ترك اللذات تماما ، فهذا يكاد يكون مستحيلا ، فلابد من الأخذ منها بنصيب معقول .

الثانى . حسن العشرة ، وهى نفسها خمسة صور وأشكال :

أولها ،عشرة الملوك والعظماء. والذى يستطيع ذلك هو الذى تعلوه درجته فى الأدب ويتميز برجاحة العقل ، والصبر فى تحمل المشاق، ذلك أن الذى يصاحب السلطان إنما يعرض نفسه لأخطار كثيرة . ويفيض القلقشندى بعض الشئ فى هذا النوع من " المعاشرة " ، وإن كنا نختلف معه كثيرا فى هذا ، فمن رأينا أن مصاحبة الكاتب أو المفكر لصاحب السلطة هى ضرورية بطبيعة الحال تأدية لأمانة الكلمة وواجب النصيحة والمشورة ، ولكن الذى يرتاد هذا الطريق يغريه القرب من السلطة ، فيلين جانبه ويصبح همه هو إرضاء السلطان ، فلا يحدثه بما يجب أن يسمع وإنما يحدثه بما يحب أن يسمع ، فينافق ، ويخفى العيوب والثغرات فيخون بذلك أمانة الفكرة وأمانة الكلمة وتتحول صحبته إلى وبال وبال ما بعده وبال !

لكن والحق يقال ، فقد حرص القلقشندى أن يلزم سالك هذا الطريق بعدد من الأمور يأتى فى مقدمتها (ص٨٠) :

الإخلاص – النصيحة – كتمان السر – الاجتهاد – الشكر – الوفاء – مجانبة الإدلال – التمسك بآداب الخدمة بالمواظبة عليها – حسن اختيار الأوقات المناسبة للمخاطبة والتحدث – ترك النميمة وذم الغير .. وهكذا .

وثانى هذه الصور ، عِشرة الزملاء والأصدقاء ، أو بتعبير القلقشندى (الأكفاء والنظراء) والآداب المطلوبة هنا ، هى الوفاء والتسامح والحرص على استمرار العلاقات حتى مع من لا يحرصون على تدعيمها وتنميتها . والمبرر الأساسى لهذا كله هو " التزامل " فى المهنة والعمل والفكر فهى أشد قوة وأعز شأنا من قرابة الدم .

وثالثها ، عِشرة الأتباع ، فليس معنى أن يكون للكاتب أتباع أن يتعالى عليهم ويهمل شأنهم وإنما على العكس من ذلك ، إذ ينبغى أن يخصهم بالنصيب الأوفر من إكرامه وذلك حتى يخدموه عن رغبة وحب لا عن خوف ورهبة ، وأن يحبب خدمته إليهم بترك مناقشتهم ، والتضييق عليهم ، وإتاحة الفرصة لهم كى ينالوا ما هم بحاجة إليه من المتعة والترفيه حتى لا يصيبهم الملل ويعتريهم الضجر ،وإن كان هذا لا يعنى التسامح فى هذا الشأن ، لأنه قد يعودهم بذلك على التسيب والكسل (ص٨٣).

ورابعها ، عشرة الرعية والمقصود بذلك ، (الجمهور) ، أو (الزبائن) الذين يتعامل معهم الكاتب " إذ لا يطيب لأحد عيش مع بغض الرعية له ، ونفورهم منه " ، وقدوتنا فى ذلك قول الله عز وجل واصفا الرسول صلى الله عليه وسلم (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) ومن ثم فمن المهم أن يحرص الكاتب على التبسط مع الجمهور ولين الجانب ويبرأ من البعض والشحناء .

وخامسها ، عِشرة من يمت إليه بحرمة ، مثل الجار والقاصدين إليه والآملين فيه خيرا وغيرهم مثل مشايخ المهن والحرف الذين بذلوا الجهد لتذليل سبلها وتسهيل طرقها فلا يبخسهم حقهم وإنما يعاملهم بالإنصاف فيما جهدوا فيه.

العلوم التى يحتاجها الكتاب والمثقفون :

وكما أشرنا من قبل ، فنظرا لاتساع دائرة العمل والاختصاص المطلوب من الكاتب صنف القلقشندى هذه العلوم والمعارف والمهارات إلى ما يأتى :

١- المعرفة باللغة العربية ، فهى والحق يقال ، رأس مال الكاتب ، من حيث أن الألفاظ قوالب للمعانى التى يريد الكاتب أن يعبر عنها مما يحتم عليه

أن يمهر فيها فيعرف الأسماء والأفعال والحروف والتصرف فى وجوه دلالاتها الظاهرة والخفية ليتمكن بذلك من استعمالها فيما يحسن أن تستخدم فيه ، وتتسع أمامه السبل والوسائل فلا يقتصر على الصور المألوفة والمطروقة .

وقد أفاض القلقشندى كثيرا فى شرح الجوانب التى يوجب على الكاتب العلم بها من جوانب اللغة العربية (ص١٥٠-١٦٤) .

٢- المعرفة باللغات الأجنبية ، وتلك لعمرى أداة هامة أن كانت ذات شأن وقيمة فى زمن المماليك بحيث أشار إليها القلقشندى ودعا إلى تعلمها ، فنحن فى العصر الحاضر أشد احتياجا إليها ، فلقد كان المسلمون فى الزمن السابق هم أصحاب الحضارة يعطون أكثر مما يأخذون ، ولذلك كان على غيرهم أن يتعلم لغتهم ، ومع ذلك ، فها هو صاحبنا يدعو كتاب زمنه إلى تعلم اللغات غير العربية ، أما الآن فالغرب هو صاحب الحضارة السائدة ، ونحن نأخذ منه أضعاف ما نعطيه من الثقافة ، ومن ثم تحتم علينا معرفة لغاته حتى يمكن لنا فهم ومعرفة ما تحويه كتبه ومصادره من ألوان العلوم والفنون .وهناك من الأسانيد الإسلامية ما يجعل ذلك أمرا مطلوبا ومتحسنا ، فقد روى عن زيد ابن ثابت أنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه يرد علىّ أشياء من كلام السريانية لا أحسنها ، فتعلم كلام السريانية ، فتعلمتها فى ستة عشر يوما ، وفى رواية قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يا زيد ، تعلم كتاب يهود فإنى والله لا آمن يهود على كتابى. قال : فتعلمت كتابتهم ، فما مر لى ست عشرة ليلة حتى حذقته فكنت أقرأ له كتبهم إذا كتبوا إليه وأجيب إذا كتب) ، وفى رواية العبرانية بدل السريانية (١٦٥).

٣- المعرفة بعلم النحو : فلا نزاع أن النحو هو قانون اللغة العربية وميزان تقويمها، ذلك أن الكاتب لا ينبغى له أن يقف عند حد معرفة اللغة بأسمائها وحروفها وأفعالها والجمل التى تتركب منها ، إذا لابد من معيار لكل

ذلك ، والمعيار هو النحو فقد قال الرشيد يوما لبنيه: " ما ضر أحدكم لو تعلم من العربية ما يصلح به لسانه ، أيسر أحدكم أن يكون لسانه كلسان عبده وأمته ؟ " ومن كلام مالك بن أنس :" الإعراب حَلْيُ اللسان ، فلا تمنعوا ألسنتكم حُلِيّها "، ولأبى سعيد البصرى شعر فى ذلك جاء فيه (ص١٦٩) :

النحو يبسط من لسان الألكَنِ والمرء تُكرمه إذا لم يلحن

وإذا طلبت من العلوم أجلّها فأجلّها عندى مقيمُ الألسن

وقد روى أن إعرابيا سمع قارئا يقرأ (أن الله بـرئ مـن المـشركين ورسوله) ، بجر رسوله فتوهم عطفه على المشركين ، فقال : أو برئ الله من رسوله ؟ فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فأمر أن لا يقرأ القـرآن إلا مـن يحـسن العربية .

وينعى القلقشندى على زمنه أن اللحن قد فشأ فيه بين الناس والألسن قـد تغيرت حتى صار – التكلم بالإعراب عيبا ، والنطق بالكلام الفصيح عيبا . ولو درس ماذا حدث بعد ذلك حتى أوائل القرن الخامس عشر لحمد الله على ما كان فى زمانه !!

وأحسن وسيلة لمواجهة ذلك المحافظة على الإعراب فى القرآن الكـريم والأحاديث النبوية وفى الشعر والكلام المسجوع ، وما يدون من الكلام ويكتب من المراسلات ونموها .

٤- المعرفة بالتصريف (علم الصرف) ، وذلك حتى يتمكن الكاتب من معرفة أصل الكلمة وزيادتها وحذفها وإبدالها فيتصرف فيها بالجمع والتـصغير والنسبة إليها وغير ذلك لأنه إذا أراد جمع الكلمة أو تصغيرها أو النسبة إليهـا

ولم يعرف الأصل فى حروف الكلمة ، وزيادتها وحذفها وإبدالها ضل حينئذ عن السبيل (ص١٧٧).

٥-المعرفة بعلوم المعانى والبيان والبديع . ولعل أدق ما يشير لنا إلى أهميتها ، ما كتبه أبو هلال العسكرى فى هذا الشأن ، إذ قال أن الذى لا يحسن هذه العلوم تسقط قيمته : لأنه إذا لم يفرق بين كلام جيد وآخر ردئ ، ولفظ حسن وآخر قبيح ، وشعر نادر وآخر بارد ، بان جهله، وظهر نقصه ، وإذا أراد أن ينشئ رسالة أو يضع قصيدة وقد فاتته هذه العلوم مزج الصفو بالكدر .. فجعل نفسه مهزأة للجاهل ، وعبرة للعاقل ، وكذلك إذا أراد تصنيف كلام منثور أو تأليف شعر منظوم وتخطى هذه ، ساء اختياره ، وقبحت آثاره فأخذ الردئ المردود، وترك الجيد المقبول ، فدل على قصور فهمه وتأخر معرفته ، مع ما فى هذه العلوم الثلاثة من الوسيلة إلى فهم كتاب الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم اللذين منهما يستمد الكاتب شريف المعانى ، ويستعير فصيح الألفاظ ، بل منهما تستفاد سائر العلوم ، وتقتبس نفائس الفضائل " (ص١٨١).

٦- حفظ القرآن الكريم ، وذلك لقوله تعالى : (فلله الحجة البالغة) وقوله (مافرطنا فى الكتاب من شئ) وكذلك (تبيانا لكل شئ) ، إلى الدرجة التى قال فيها بعضهم " لو ضاع لى عِقال لوجدته فى القرآن الكريم ، وذلك من قوة إيمانه ، بأن القرآن جامع شامل .

فحفظ القرآن يضع بين يدى الكاتب ثروة لغوية وفكرية هائلة يستطيع أن يستمد منها الحجج الدامغة والبراهين الدقيقة والتشبيهات الرائعة ، والناس فى استخراج المعانى من القرآن الكريم واستعمالها فى الكلام على قدر طبقاتهم وتفاوت درجاتهم .

وكما يحتاج الكاتب إلى حفظ كتاب الله تعالى والمعلم بتفسيره ليقتبس من معانيه ، كذلك يحتاج إلى معرفة العلوم المختصة به ، كالعلم بالقراءات السبع والشواذ ومعرفة رجالها ومن اشتهر منهم وعرف بجودة القراءة ومعرفة أعيان المفسرين ورؤوسهم (٢٠٠).

٧- الاستكثار من حفظ الأحاديث النبوية ، وكذلك الآثار المروية عن الصحابة رضوان الله عليهم وخصوصا فى السير والمغازى والأحكام وتأمل فصاحتها والنظر فى معرفة معانيها وغريبها ، وفقه ما لابد من معرفته من أحكامها ، ويستشهد بكل شئ فى موضعه ويستدل بالدليل فى موضعه " يكون المقصد إذا استند إلى النص تقويت فيه الحجة ، وسلم له الخصم، وأذعن له المعاند " .

وقد كان الصدر الأول من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم يحتجون بالحديث ويستدلون به فى مواطن الخلاف والنزاع ، فقد رجع عمر بن الخطاب لحديث النهى عن دخول البلد التى ينتشر فيها الطاعون ، فعاد إلى المدينة بعد أن قارب الشام حين بلغه أن الطاعون كان فيها فاشيا .

ومما يذكره الوزير ضياء الدين بن الأثير : " واعلم أن أكثر الأحاديث تدخل فى الاستعمال ولا يخرج عنه إلا القليل النادر " ، ويريد بذلك أن الكثرة الغالبة من الأحاديث النبوية سيجد الكاتب أنه بحاجة إلى استخدامها .

وكما يحتاج الكاتب إلى حفظ الأحاديث والآثار ، كذلك يحتاج إلى المعرفة بأنواع الحديث وأقسامها وكذلك المعرفة بأسماء الرجال والمشاهير من المحدثين (ص٢٠٨).

٨- الإكثار من حفظ خطب البلغاء . فالتاريخ الإسلامى زاخر بمن بلغوا شأوا بعيدا فى فصاحة اللسان وبلاغة القول ، والوقوف على مثل هذه الخطب

واستيعابها فهما وحفظا يمد الكاتب بكم هائل يمكن أن ينسج على منواله لا تقليدا أو تكرارا وإنما تأسيا فى النهج والمقصد ويعلى القلقشندى من شأن الخطب بالنسبة للثقافة العربية والحياة الإسلامية " وذلك أن الخطب من مستودعات سر البلاغة ، ومجامع الحكم ، بها تفاخرت العرب فى مشاهدهم ، وبها نطقت الخلفاء والأمراء على منابرهم ، بها يتميز الكلام ، وبها يخاطب الخاطب الخاص والعام ، وعلى منوال الخطابة نسجت الكتابة ، وعلى طريقة الخطباء مشت الكتاب " (ص٢١٠).

لكن لابد لنا أن ننبه إلى أن أمرا مثل هذا إنما هو وسيلة ، لكن الذى حدث بعد عصر القلقشندى ، أن كثيرا من الناس اتخذوه غاية ، فأخذ بعض المؤلفين يكتبون " نماذج " من الخطب ، ويسرع بعض من لا همة لهم إلى مجرد ترديدها بعد أن كان الغرض أولا هو " الاستفادة منها بقدر " و " الاستعانة بها " كمنهج فى الكتابة والتفكير ، فصار ضررها أكثر من نفعها ، وتعطلت عقول هؤلاء الذين سلكوا هذا الطريق ، وتسببوا فى اتهام الثقافة العربية بأنها لا تقوم إلا على الحفظ وتفتقد الابتكار والإبداع .

٩-حفظ جانب جيد من مكاتبات الصدر الأول ومحاوراتهم. وما عقبنا به على البند السابق هو أيضا ما نكرره هنا ، بل أن هذا النوع هو أكثر الأنواع شيوعا فى التقليد فنجد من يؤلفون (رسائل فى الغرام) و (رسائل الأصدقاء) ومع إلى ذلك ، بحيث إذا أراد أحد كتابة رسالة ، فما عليه إلا أن ينقل حرفيا نموذجا منها !! ومن الطريف أن القلقشندى قد نبه فى وقته إلى خطر ذلك ، فأشار بأن الغرض منها إنما هو أن " يستعان بحفظها على مواقع البلاغة " ، وحذر ونهى أن " لا يطمع الخاطر بالاتكال على إيراد فصل منها برمته لمخالفته لأسلوب الكتاب فى أكثر الأمور " (ص٢٢٧) !

كذلك يعدد القلقشندى وظائف هذا النوع بأن فيه : " تنقيح القريحة ، وإرشاد الخاطر ، وتسهيل الطرق ،والنسج على منوال المجيد والاقتداء بطريقة المحسن ، واستدراك ما فات ، والاحتراز مما أظهره النقد .. واقتصر على النظر فيها دون حفظها لئلا يتكل الخاطر على ما يأتى به بأصله مما ليس له فيتشبع بما لم يعط فيكون كلابس ثوبى زور " ، فها هو صاحبنا وبألفاظ صريحة ، بل وبأعنف ما نقول نحن ، يتهم الذين يعولون على كتابات غيرهم بالتزوير مما دعاه إلى أن لا يحبذ الحفظ بالنسبة لهذا النوع .

١٠- الاستكثار من حفظ الأشعار العربية.

١١- الإكثار من حفظ الأمثال . والأهمية التربوية لهذا النوع أنه عادة ما يلخص " خبرة المجتمع " العملية فى الحياة بكلمات قليلة بحيث يمكن أن نستند إليها فى استقراء الاتجاهات التربوية فى مجتمع ما ، فإذا قرأنا مثلا - " أهل مكة أخبر بشعابها " ، فإن ذلك يشير إلى إيمان العرب بأهمية " الخبرة " مما يجعل أهل الموطن ، أكثر دراية به من غيرهم ، ومن ثم فشهادة المواطن عن موطنه أكثر صدقا وأقرب إلى الحقيقة من شهادة غيره ، هذا فى حالة الصدق بطبيعة الحال .

١٢- معرفة أنساب الأمم من العرب وغيرهم .

١٣- المعرفة بمفاخرات الأمم ومنافراتهم ، وما جرى بينهم فى ذلك من المحاورات .

ولا شك أن هذين النوعين مما اختصت به الثقافة العربية دون غيرها ، ولربما قلت الحاجة إلى استخدامهما فى ثقافتنا المعاصرة إلا من حيث " التاريخ " ، وكذلك يمكن الاستفادة بالنوع الثالث عشر ، إذا قصدنا به الوقوف على

المميزات والخصائص التى تخص كل مجتمع من المجتمعات ، فهذا أمر هام تعطيه العلوم الاجتماعية اهتماما بالغا ويحتمل مكانة أساسية فى دراساتها .

١٤- المعرفة بأيام الحروب الواقعة . وهذا أيضا مما كانت تعنى به الثقافة العربية مما أوحى للبعض أن يذهب إلى وضعها بأنها كانت تعنى بالحرب أكثر من عنايتها بالسلام ، بيد أننا نظلم هذه الثقافة كثيرا إذا لم نضع فى الاعتبار ظروف (التحدى) المستمرة التى تعيشها منذ ظهور الإسلام وحتى الآن .

١٥- أوابد العرب (ص٣٩٨) ، وهى أمور كانت العرب عليها فى الجاهلية ، بعضها يجرى مجرى الديانات وبعضها يجرى مجرى الاصطلاحات ، وبعضها يجرى مجرى الخرافات ، وجاء الإسلام بإبطالها ، مثل : الكهانة ، ووأد البنات ، ولا نظن أن لها قيمة الآن إلا بالنسبة لدارسى التاريخ العربى وخاصة القديم وكذلك الأدب العربى .

١٦- عادات العرب .

١٧- قراءة كتب التاريخ .

١٨- المعرفة بخزائن الكتب ، وأنواع العلوم ، والكتب المؤلفة فيها ، وأسماء العلماء المبرزين فى فنونها .

وفى هذا النوع يفيض القلقشندى فى ذكر أسماء العلوم بمختلف تصنيفاتها ، ومن المهم لنا فى هذا المجال أن نشير إليها فى إيجاز :

أ- علوم الأدب ، وتشمل : علم اللغة – علم التصريف – علم النحو – علم المعانى – علم البيان – علم البديع – علم العروض – علم القوافى – علم قوانين الخط – قوانين القراءة.

وقد سبق أن بينا أهمية بعض هذه العلوم بالنسبة للكاتب .

ب- العلوم الشرعية ، وتشمل : علم النواميس المتعلق بالنبوات – علم القراءات – علم التفسير – علم رواية الحديث – علم دراية الحديث – علم أصول الدين – علم الجدل – علم الفقه .

جـ- العلوم الطبيعية ، وتشمل : علم الطب – علم البيطرة – علم البيزرة (الصيدلة) – علم الفراسة – علم تعبير الرؤيا – علم أحكام النجوم – علم السحر – علم الطلسمات –علم السيميا – علم الكيميا – علم الفلاحة – علم ضرب الرمل .

د- علوم الهندسة : وتشمل : علم المناظر – علم المرايا المحرقة – علم مراكز الأثقال – علم المساحة – علم أنباط المياه – علم جر الأثقال – علم البنكامات – علم الآلات الحربية – علم الآلات الروحانية .

هـ- علوم الهيئة ، وتشمل : علم الزيجات – علم المواقيت – علم كيفية الأرصاد – علم تسطيح الكرة – علم الآلات الظلية .

و-علوم الرياضة ، وتشمل : علم الحساب المفتوح – علم حساب التخت والميل – علم الجبر والمقابلة – علم حساب الخطأين – علم حساب الدور والوصايا .

ت- العلوم العملية ، وتشمل : علم السياسة – علم الأخلاق – علم تدبير المنزل (ص٤٦٨-٤٧٩).

ومن المعروف أن هذا الموضوع بالذات من أكثر الموضوعات التى بحثها العديد من المؤلفين الإسلاميين واستقراء تصنيفاتهم لا يظهرنا على كبير اختلاف بينهم .

١٩- المعرفة بالأحكام السلطانية ، والمقصود بها يقرب مما نعنى به الآن تحت اسم " القانون الدستورى" ، ولكن من الناحية الشرعية لا من ناحية القوانين الوضعية وقد أشار القلقشندى إلى أهم مصدر إسلامى فى هذا الباب ، وهو كتاب (الأحكام السلطانية) للماوردى.

فئات المثقفين :

وبتعبير القلقشندى " أرباب الأقلام " ، وكانت فئاتهم وألقابهم تتعدد وتختلف باختلاف العهود والدول ، ومن أهم فئاتهم :

١- القاضى : وهو عبارة عمن يتولى فصل الأمور بين المتداعين فى الأحكام الشرعية وهى وظيفة قديمة كانت فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ، فقد ذكر القضاعى أنه صلى الله عليه وسلم ولى القضاء باليمن عليا بن أبى طالب ومعاذا بن جبل وأبا موسى الأشعرى وأن أبا بكر ولى القضاء وعمر ابن الخطاب .

وقد حدث فى بعض العهود أن أطلقوا هذا اللقب والألقاب المتفرعة عنه مثل القضائى والقاضوى ، على أرباب الأقلام جملة ، سواء كان صاحب اللقب متقلدا بالفعل لهذه الوظيفة أو غيرها ، كسائر العلماء والكتاب ومن فى معناهم ، وعلى ذلك كان عرف العامة أيضا .

٢- المحتسب ، وهو من يقوم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والتحدث فى أمر المكاييل والموازين ونحوهما ، وقد سمى بذلك لأنه يكفى الناس مئونة من يبخسهم حقوقهم .

٣- الكاتب ، وكان – كما قدمنا – يطلق على كاتب الإنشاء فقط ، ثم تغير الحال بعد ذلك إلى أن صار العرف العام بمصر يصرفونه إلى كاتب المال

وهو من الألقاب القديمة ، فقبل التلقيب بالوزارة فى الدولة العباسية ، كانوا يقولون : كاتب .

وداخل فئة الكتاب ، هناك طوائف متعددة ، منها (ج٥، ص٤٦٤):

أ - كاتب السر ، وهو صاحب ديوان الإنشاء .

ب- كاتب الدست وهو الذى يجلس مع كاتب السريدار لعدل أمام السلطان أو النائب ببلد من البلدان .

جـ- كاتب الدرج ، وهو الذى يكتب المكاتبات والولايات وغيرها فى الغالب .

أما كتاب الأموال ، فقد تنوعت وظائفهم وألقابهم ، مثل (ص٤٦٥) :

- الوزير ، إذا كان من أرباب الأقلام.
- الناظر ، وهو ينظر فى الأموال وينفذ تصرفاتها ويرفع إليه حسابها لينظر فيه ويتأمله فيمضى ما يمضى ويرد ما يرد .
- صاحب الديوان ، وكانوا من قبل يسمونه (متولى الديوان) ، وهو ثانى رتبة الناظر فى المراجعة ، وله أمور تخصه كترتيب الدّرج ونحو ذلك .
- الشاهد . وهو الذى يشهد بمتعلقات الديوان نفيا وإثباتا .
- المستوفى : وهو الذى يضبط الديوان وينبه على ما فيه مصلحته من استخراج أمواله ونحو ذلك .

- العامل . وهو الذى ينظم الحسابات ويكتبها، وقد كان هذا اللقب فى الأصل يطلق على الأمير المتولى العمل ثم نقله العرف إلى هذا الكاتب وخص به دون غيره .

- الماسح . وهو الذى يتصدى لقياس أرض الزراعة .

- المعين . وهو الذى يتصدى للكتابة إعانة لأحد من المباشرين المذكورين .

- الصيرفى . وهو الذى يتولى قبض الأموال وصرفها .

٤- الخطيب : وهو الذى يخطب الناس ، ويذكرهم فى الجمع والأعياد ونحوهما . وقد كان ذلك فى أوائل العصور الإسلامية مختصا بالخلفاء والأمراء (ص٤٦٣) .

٥- المقرئ . وهو الذى يقرئ القرآن العظيم . وقد غلب لختصاصه فى العرف على مشايخ القراءة من قراء السبعة المجيدين المتصدين لتعليم علم القراءة .

٦- المحدث : والمراد به من يتعاطى علم حديث النبى صلى الله عليه وسلم بطريق الرواية والدراية ، والعلم بأسماء الرجال وطرق الأحاديث والمعرفة بالاسانية ونحو ذلك .

٧- المدرس . وهو الذى يتصدى لتدريس العلوم الشرعية ، من التفسير والحديث والفقه والنحو والتصريف ونحو ذلك .

٨- المعيد . وهو ثانى رتبة المدرس ، ولصل وظيفته ، أنه إذا ألقى المدرس الدرس وانصرف ، أعاد للطلبة ما ألقاه المدرس إليهم ليفهموه ويحصنوه.

ومن استقرائنا لبعض النصوص التى كتبت كأمر تولية ، أو بمعناها المعاصر (أمر تكليف) لبعض الوظائف التى لم يكن يتولاها إلا المتعلمون ، نستطيع أن نقف على منزلة هؤلاء فى الدولة ، من ذلك على سبيل المثال ، ذلك الأمر الذى تولى به (أبو يزيد الدوادار) نظر الجامع الطولونى فى عهد السلطان برقوق من سلاطين دولة المماليك ، فقد جاء فيه (ج١١ ، ص ١٦٠):

" .. وبعد .. فإن أولى من ألقيت إليه مقاليد الأمور ،وصرفناه فى جميع مصالح الجمهور وفوضنا إليه النظر فى بيوت الله تعالى ليعمرها بنظره السعيد وتضاعف له الأجور ، ومكنا له فى دولتنا الشريفة حتى صار قطب فلكها عليه تدور ، وبسطنا يده ولسانه ... من امتاز بفضيلتى السيف والقلم .."

ومن النصوص الهامة ، نص أورده القلقشندى ليصور لنا ما كان يكتب عادة عن العلماء وأهل الأدب وخاصة الإجازات بالفتيا والتدريس ، أن يأذن له شيخه فى أن يفتى ويدرس ، ويكتب له بذلك .

والنص الذى نشير إليه إنما هو خاص بالقلقشندى نفسه كتب له حين أجازه شيخه سراج الدين أبو حفص عمر بن أبى الحسن الشهير بابن الملقن عندما جاء إلى الإسكندرية سنة ٧٧٨هـ ، وكان القلقشندى مقيما بها ولم يكن عمره يزيد على إحدى وعشرين عاماً ، وقد جاء فى هذه الإجازة (ج١٤، ص ٣٢٣) :

" الحمد لله الذى رفع للعلماء مقدارا ، وأجزل نعمه عليهم إذ أعلى لهم منارا ، ووفق بسواء الطريق من اقتدى بهم إيرادا وإصدارا ، أشرعت هممهم العلية فى حلبة السباق فهى لا تُجارى ، وتحلوا بالمفاخر جهرا وقد عجز غيرهم أن يتحلى بها إسرارا ، أبرز بهم فى هالات المفاخر أقمارا ، وأزال بضياء علومهم ريب الشك حتى عاد ليل الجهالة نهارا ، جعلهم لدينه أنصارا ،

وصيرهم نخبة أصفيائه إذ أودعهم من المعارف أسرارا ، واختصهم بكونهم ورثة أنبيائه : وناهيك بها فخارا .

أحمده حمد من هدى إلى الحق فجعله شعارا ، واستضاء بنور الهدى فلجأ إلى مولاه في حالتي سره وجهره افتقارا ، وعجز عن شكر ما أسدى إليه من النعم لما توالى عليه وبَلُها مدرارا ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تصديقاً وإقرارا ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أرسله والأصنام قد عبدت جهارا ، والكفار قد أعرضوا عن الحق استكبارا ، فقام بأمر الله انتصارا ، وقهر من أعرض عن الله اغترارا ، وأخمد بضياء نوره الباطل وأهدره إهدارا ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تزيدنا في ديننا استبصارا ، وتحط عنا من ثقل الذنوب أوزارا ، وتبوؤنا إن شاء الله تعالى في دار الخلود قرارا .

أما بعد ، فقد وضح لذوى الأبصار والبصائر ، واتضح عند ذوى الأسرار والسرائر ، واستقر عند ذوى القلوب السليمة ، والعقول الراجحة المستقيمة ، أن منزلة علم الشريعة عند الله تعالى أعلى المنازل ، وفضله أفضل المآثر وأثر الفضائل ، وخصوصاً معرفة تفاصيل أحكام أفعال المكلفين بالشريعة المحمدية ، التي مَنْ عَلِمَها وعمل بها وعلمها فقد سعد السعادة الأبدية ، إذ هي الشريعة الجامعة لمصالح الدنيا والآخرة ، الناسخة لما خالفها من الشرائع الغابرة ، الباقية إلى أن يأتي وعيد الله وكل شريعة سواها دائرة ، فقد أعظم الله تعالى على من حفظها على عباده المِنة ، إذ جعله وقاية لهم من مهالك الجهل وجُنّة ، ووعده أن ينزل في أعلى منازل الجنة ، لما شهدت به نصوص الكتاب والسنة ، قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : (وقل رب زدني علما) فنبهه على أن العلم أقوى أسباب العبادة ، إذ خصه به وحضه على أن يطلب منه الزيادة . وقال تعالى : (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم) فثنى بذكرهم بعده ، لكونهم أفضل الخلائق عنده . وقال تبارك

وتعالى اسمه ، وتقدس علمه : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) . فأوضح بذلك أن أولياءه من خلقه العلماء ، إذ وصفهم وخصهم بأنهم الخائفون منه الأتقياء . وقال عليه السلام : " من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين " . وقال أيضا : " ألا إن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله تعالى وما والاه ، وعالِم ومتعلم " .

ولما كان فلان – أدام الله تعالى تسديده وتوفيقه ، ويسر إلى الخيرات طريقه – ممن شب ونشأ فى طلب العلم والفضيلة ، وتخلق بالأخلاق المَرْضية الجميلة الجليلة ، وصَحِب السادة من المشايخ والفقهاء ، والقادة من الأكابر والفضلاء ، واشتغل عليهم بالعلم الشريف اشتغالا يُرضى ، وإلى نيل السعادة – إن شاء الله تعالى – يفضى – استخار الله تعالى سيدنا وشيخنا وبركتنا العبد الفقير إلى الله تعالى ، الشيخ الإمام العلامة ، الحبر الفهامة ، فريد دهره، ونسيج وحده ، جمال العلماء ، أوحَد الفضلاء ، عمدة الفقهاء والصلحاء ، سراج الدين ، مفتى الإسلام والمسلمين ، أبو حفص عمر ابن سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى ، الشيخ الإمام العالم، العامل ، الأوحد ، الكامل ، القدوة ، المرحوم نور الدين أبى الحسن على ، ابن سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى ، الشيخ الصالح ، الزاهد ، العابد ، الخاشع ، الناسك ، القدوة ، المرحوم شهاب الدين ، بركة الصالحين ، أبى العباس أحمد ، ابن سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى ، الشيخ الصالح ، القدوة ، العارف ، المرحوم ، شمس الدين ، أبى عبد الله محمد الأنصارى الشافعى ، أدام الله تعالى النفع به وببركته ، وأشرنا والمسلمين فى صالح أدعيته ، بمحمد وآله وصحبه وعشيرته .

وأذِن وأجاز لفلان المسمى فيه ، أدام الله تعالى معاليه ، أن يدرس هذه الإمام المجتهد المطلق العالم الربانى ، أبى عبد الله محمد بن إدريس المطلبى ، الشافعى ، رضى الله عنه وأرضاه ، وجعل الجنة منقبله ومثواه ، وأن يقرأ ما

شاء من الكتب المصنفة فيه ، وأن يفيد ذلك لطالبيه ، حيث حل وأقام ، كيف ما شاء متى شاء وأين شاء ، وأن يفتى من قصد استفتاءه خطا ولفظا على مقتضى مذهبه الشريف المشار إليه : لعلمه بديانته وأمانته ، ومعرفته ودرايته ، وأهليته لذلك وكفايته .

فليتلق أيده الله تعالى هذه الحُلة الشريفة ، وليترق بفضل الله تعالى ذِروة هذه المرتبة المنيفة ، وليعلم قدر ما أنعم الله تعالى عليه ، وأسدى من الإحسان الوافر إليه ، وليراقبه مراقبة من يعلم اطلاعه على خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وليعامله معاملة من يتحقق أنه يعلم ما يخفيه العبد وما يبديه فى الورود والصدور ، ولا يستنكف أن يقول فيما لا يعلم : لا أعلم : فذلك قول سعد قائله . وقد جاء " جنة العالم لا أدرى فإن أخطأها أصيبت مقاتله " فالله تعالى يرزقنا وإياه التوفيق والتحقيق ، ويسلك بنا وبه أقرب طريق ، ويهدينا إلى سواء السبيل ، فهو حسبنا ونعم الوكيل " .

الهوامش

١- سعيد عبد الفتاح عاشور : الظاهر بيبرس ، القاهرة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر . سلسلة أعلام العرب (١٤) ، فبراير ١٩٦٣ ، ص ١٢ .

٢- مقدمة ابن خلدون ، ص ٤٠٥.

٣- محمود رزق سليم : الأشرف قنصوة الغورى ، القاهرة ،الدار المصرية لتأليف والترجمة ، سلسلة أعلام العرب (م ٥) ، د.ت ، ص ٩.

٤- سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام . القاهرة ، دار النهضة المصرية ١٩٦٥، ص ٣١٠.

٥- سيرة ابن هشام .

٦- صبح الأعشى ، جـ١،ص ٥٢.